مجلة الفكر المتوسطي للبحوث والدراسات في حوار الديانات والحضارات
ISSN: 1543-2335
E-ISSN: 2012-3299
مجلد: 08 عدد: 01 ماي 2019
العنوان: "الانفصام اللغوي" والأمن الهوياتي في الجزائر
ص237. ص260

"الانفصام اللغوي" والأمن الهوياتي في الجزائر

الدكتورة. إيمان بن محمد
معهد الترجمة – جامعة الجزائر2
imanebenmo@gmail.com

تاريخ الإرسال:2019/05/21؛ تاريخ القبول: 2019/05/27، تاريخ النشر: 02/ 06/2019

Title : « Linguistic schizophrenia » and identity securty in Algeria

Abstract : Actually the sociolinguistic situation in Algeria is so complicated due to the existence of a variety of languages. In the current study the emphasis will be on the special correlation between Arabic as the national official language and French as the first foreign language and the subsequent problems such a relation creates, linguistic schizophrenia in particular. The researcher tries to shed a good deal of light on the notion of this linguistic phenomenon as well as its different forms in the Algerian society and its impact on the Algerian identity security.
Keywords: « Linguistic schizophrenia »; identity security; Arabic; French; Algeria.

الملخص: إن الواقع الاجتماعي اللساني بالجزائر يتسم بالتعقيد في ظل وجود عديد التنوعات اللغوية، وسنركز هنا على العلاقة الخاصة بين العربية – كلغة رسمية ووطنية– والفرنسية –كلغة أجنبية أولى– وما يتمخض عنها من إشكالات، لاسيما ظاهرة "الانفصام اللغوي"، من خلال تسليط الضوء على مفهومها ومظاهرها في المجتمع الجزائري ومدى تأثيرها على أمنه الهوياتي.

الكلمات المفتاحية: "الانفصام اللغوي"؛ الأمن الهوياتي؛ اللغة العربية؛ اللغة الفرنسية؛ الجزائر.

مقدمة:

لا جرم أن الواقع الاجتماعي اللساني بالجزائر يتسم بالتعقيد في ظل وجود أربع ظواهر لغوية على الأقل: إذ تتعايش عديد التنوعات اللغوية (اللغة العربية الفصحى ومختلف اللهجات العاميّة والأمازيغية، بالإضافة إلى اللغة الفرنسية التي لها وضع خاص ولغات أجنبية أخرى أهمّها الانجليزية والاسبانية) التي ولّدت بدورها ما يسمى "المزج اللغوي" (Code-mixing) و"التعاقب اللغوي" (Code-switching)، ويضاف إلى هذا كل من ظاهرتي الثنائية اللغوية (Diglossie) والازدواجية اللغوية (Bilinguisme).

وترى مجموعة من الباحثين في الحقل اللساني الجزائري(1) أن هذا التعقيد الذي تتّسم به الوضعية اللغوية في الجزائر ليس بسبب تعدد اللغات بقدر ما هو التناقض الكبير بين "النظري"، أي ما هو مصرّح به رسميا في الخطاب الايديولوجي للسلطة، وبين الاستعمال الحقيقي لهذه اللغات، مبرزة، في دراسة قامت بها، البون الشاسع بين الطابع الرسمي (status) لكلّ من اللغتين العربية والفرنسية وبين الاستعمالات الحقيقية والفعلية (corpus) الخاصة بهما على أرض الواقع.

فقيمة اللغة في الحقل اللساني تتحدد إذًا بمقارنة طابعها الرسمي بمكانتها الحقيقية في الواقع الاجتماعي. وقد خلُصت تلك الدراسة، بعد مقارنة هذين المؤشّريْن بالنسبة إلى كل من العربية الفصحى والدارجة والفرنسية والأمازيغية والانجليزية في الجزائر، إلى وجود فرق شاسع بين مكانة اللغة العربية الرسمية (52.10 بالمائة) ومكانتها الحقيقية على أرض الواقع (21.9 بالمائة)، في إشارة إلى أن حضور لغة الضاد في السوق اللغوية الجزائرية أقلّ بكثير ممّا هو عليه في الخطاب الرسمي، بعكـس اللغة الفرنسية التي تقترب كثيرا من العربية من حيث استعمالها الحقيقي (16.1 بالمائة)، مع أنها – رسميا – لا تحتل المكانة ذاتها التي تحظى بها اللغة العربية.

كما يبدو من خلال الأرقام التي قدمها هؤلاء الباحثون أن هذه "اللغة الأجنبية" تكاد تكون لها القيمة الرمزية ذاتها التي تتمتّع بها العربية، مع أنها تشهد هي الأخرى هوّة بين مكانتها في الخطاب الرسمي المؤسّساتي (32.47 بالمائة) واستعمالها الاجتماعي (16.1 بالمائة).

إن ما نود التركيز عليه في هذه المساهمة هو العلاقة الخاصة التي تربط بين العربية كلغة رسمية ووطنية والفرنسية كلغة أجنبية أولى، لاسيما أن بناء فضاء لغوي تسمو فيه لغة الضاد وتُهيمن عليه اصطدم بصعوبات غيّرت في موازين القوة بين اللغتين وفي طبيعة العلاقة بينهما التي أضحت في كثير من المجالات تنافسية أكثر منها تكاملية، مما ولد جملة من الإشكالات على

مستويات عديدة. ففي المدرسة مثلا، يتحدث أهل الاختصاص (2) عن "كفاءة لغوية دنيا مزدوجة "semi-linguisme" تتمثل في تحكّم جزئي أو منقوص في لغتيْ المدرسة، مما أدى إلى حبسة مزدوجة عوض الحصول على كفاءة لغوية وثقافية مزدوجة.

ومن بين الإشكالات المتمخضة عن النزاع القائم بين العربية كلغة رسمية ووطنية وبين الفرنسية كـ"لغة أجنبية" أولى مع أنها تحظى بوضع خاص في الجزائر، سنسلط الضوء على ظاهرة "الانفصام اللغوي" باعتباره مبدئيا مرضا يصيب المتكلمين الذي يستعملون أكثر من نظام لغوي. فما المقصود تحديدا بـ"الانفصام اللغوي"؟ وإلى أي مدى يؤثر على الأمن الهوياتي في الجزائر؟

والإجابة عن هذه الإشكالية تكون من خلال التطرق أولا إلى مفهومي "الانفصام اللغوي" و"الأمن الهوياتي"، ثم إلى مظاهر هذا "الانفصام اللغوي" في المجتمع الجزائري، وأخيرا انعكاساته على "الأمن الهوياتي".

1. الإطار المفاهيمي:

1.1 "الإنفصام اللغوي":

قبل التطرق إلى مفهوم "الانفصام اللغوي"، سنشير ابتداء إلى ماهية "الانفصام" عموما لغة واصطلاحا.

فـ"الانفصام" لغةً مصدر انفصمَ ينفصم، انفصامًا، فهو مُنفصِم. وأصله فصَم. والفصْم في **لسان العرب** (موقع الكتروني) : "**الكسر من غير**

بينونة. فَصَمه يَفْصِمُه فَصْماً فانْفَصَم: كسره من غير أن يبين، وتَفَصَّم مثله، وفَصَّمه فَتَفَصَّم. (...) والانفِصامُ : الانقطاع. وفي التنزيل العزيز: لا انْفِصام لها؛ أي لا انقطاع لها، وقيل : لا انكسار لها."

أما اصطلاحا، فيُقصد بالانفصام أو الفصام "**مرض عقلي يمزق العقل ويصيب الشخصية بالتصدع فتفقد بذلك التكامل والتناسق الذي كان يواثم بين جوانبها الفكرية والانفعالية والحركية والإدراكية، وكأن كل جانب منها أصبح في واد منفصل مستقل عن بقية الجوانب الأخرى، ومن هنا تبدو غرابة الشخصية وشذوذها، ومن هنا أيضا اشتق اسم المرض حيث يشير الى الجوانب الشخصية المختلفة التي تصبح مفصومة بعضها عن بعض وتفقد بهذا وحدتها وتماسكها وتكاملها."**(3)

ويستشف من هذا التعريف الوارد في **معجم علم النفس والتحليل النفسي** نقطتان مهمتان: الأولى أن الانفصام اضطراب عقلي، والثانية أنه يمس أساسا شخصية الإنسان ويجعل كل جانب منها منفصلا عن الآخر فتفقده توازنه على مستويات عديدة. وبذلك، نلمس أوجه التشابه الدلالية بين المعنيين اللغوي والاصطلاحي لكلمة "انفصام": انكسار الشخصية وانقطاعها عن الواقع.

ويطلق عليه في اللغة الفرنسية مصطلح schizophrénie الذي رأى النور في بداية القرن العشرين على يد المختص في الأمراض العقلية السويسري

أوجين بلولير Eugen Bleuler، ويتكون من شقين: «schizo» = fractionnement و «phrénie» = esprit. ويقصد به بحسب ما جاء في المعجم المتخصص DICTIONNAIRE PSYCHOLOGIE / PSYCHANALYSE ما يلي (4):

"Trouble mental parmi les plus sérieux. La schizophrénie est une dissolution de la personnalité, un dédoublement à la fois intellectuel, affectif mais aussi au niveau de l'action (…)."

وإن اتفق هذا التعريف الفرنسي مع نظيره العربي في النقاط الرئيسة التي سبقت الإشارة إليها من حيث أنه مرض عقلي يصيب الشخصية فيؤدي إلى انفصامها وتشتتها على عدة مستويات، فقد زاد تفصيلا مهما لم يرد في التعريف الأول وهو سمة ازدواجية الشخصية.

وعلى شاكلة schizophrénie أي "انفصام الشخصية" جاء علماء اللسانيات الاجتماعية بمصطلح schizoglossie الشيزوغلوسيا الذي وضعه النرويجي أينار هويجن Einar Haugen في 1962 للدلالة على مرض لغوي يصيب المتكلمين الذين يستعملون أكثر من تنوع في لغتهم(5).

ويبدو التعريف الذي جاءت به بعد ذلك إيمانويل جيران Emmanuelle Guérin بخصوص مفهوم schizoglossie أكثر وضوحا عندما ربطته بالإشكالات التي تطرحها المنافسة بين اللغة الوطنية واللغات المحلية في بعض المجتمعات(6).

وبما أن مصطلح schizoglossie قد حصر – كما تقدم معنا – الإشكالات اللغوية في تلك المتمخضة عن المنافسة بين اللغة الوطنية أو الرسمية وبين بقية التنوعات اللغوية الأخرى المحلية، فإننا سنستعين بمصطلح فرنسي أخر للدلالة على ما نقصده بـ"الانفصام اللغوي" في الجزائر كظاهرة تتعدى حدود المنافسة بين العربية الفصحى وباقي اللهجات الجزائرية كالقبائلية والشاوية والترقية والعاصمية...إلى المنافسة بين العربية لغة وطنية ورسمية والفرنسية لغة أجنبية أولى. وهو مصطلح schizolinguisme ونقصد به "المرض اللغوي الذي يصيب المتكلمين الذي يستعملون أكثر من نظام لغوي مع كل ما ينجر عنه من توترات ونزاعات لغوية".

2.1 "الأمن الهوياتي":

يتكون مصطلح "الأمن الهوياتي" من كلمة "الأمن" وصفة "الهوياتي". و"الأمن" في مفهومه التقليدي هو **"قدرة الأمة على حماية قيمها الداخلية من التهديدات الخارجية"**(7). لكن هذا المفهوم توسع حديثا ليشمل قضايا الاقتصاد والبيئة والمجتمع، بحيث طرحت مفاهيم الأمن البيئي والأمن الاجتماعي، والأمن الاقتصادي...بمعنى أنه تجاوز الاعتبارات العسكرية والترابية والإقليمية ليصبح شاملا متعدد الأبعاد وأقرب إلى الحياة الاجتماعية بقيامه على أساس بقاء الأفراد والجماعات والأهم الحفاظ على هويتهم. ومن بين القطاعات التي أضحى يشملها مفهوم الأمن نجد "**الأمن المجتمعي**" المستند

على حماية الهوية والمتعلق بقدرة المجتمعات على إعادة إنتاج أنماط خصوصياتها اللغوية والثقافية في إطار شروط مقبولة لتطويرها(8).

و"الهوية" في أبسط تعريفاتها هي حصيلة مجموعة من العلاقات والدلالات التي يستقي منها الفرد معنى قيمته ويصنع لنفسه في ضوئها نظاما يشكل في إطار هويته، فيتمكن من تحديد ذاته داخل الوسط السوسيوثقافي. والهوية نوعان: فردية تتمثل في المميزات الجسدية التي تميز كل شخص عن الآخر كبصمات الأصابع، ووطنية تخص مجموعة الصفات أو السمات الثقافية العامة التي يشترك فيها أفراد مجتمع واحد وتميزهم عن أفراد المجتمعات الأخرى. (9)

ويستعمل مصطلح "الأمن الهوياتي" الذي ذاع صيته منذ ستينات القرن العشرين للدلالة أساسا على تأمين هوية المجتمع من كل ما من شأنه تهديدها، ثم على قدرة المجتمع على الحفاظ على نماذجه التقليدية من لغة وثقافة وهوية وعادات...ويعد الأمن الهوياتي أحد ركائز النهضة الاجتماعية وأعلى مظاهر استرداد الهوية التي سعت القوى الخارجية إلى محوها وطمسها، إذ يقوم على أساسين (10) : الاعتزاز بالذات الثقافية الحضارية والدفاع عن كينونتها الاجتماعية والتاريخية، وكذا الانفتاح والحوار مع الثقافات المعاصرة.

وبعد ضبط أهم المفاهيم الواردة في هذا البحث، سنتطرق فيما يلي إلى خصوصيات "الانفصام اللغوي" في الجزائر وأبرز مظاهره.

2. "الانفصام اللغوي" في الجزائر:

ما نقصده بـ"الانفصام اللغوي" في الجزائر ظاهرة اعتماد اللغة العربية في النصوص الأساسية والتغنّي بها وبضرورة استعمالها مع تمكين غيرها، أي اللغة الفرنسية، في التعامل الرسمي والإداري والاقتصادي والتسييري. فالجزائر، من وجهة نظر إحصائية، أصبحت ثاني مجتمع فرانكوفوني (11). وزد على ذلك، لا يمكن إنكار وجود موقف نفسي عام يحمل نظرة دونية نحو العربية، وهو ما سماه محمود الذوادي "فقدان التعريب النفسي" بمعنى انعدام علاقة حميمية بين المواطن واللغة العربية بحسبانها لغته الوطنية، بحيث يتفادى مبدئيا استعمالها في شؤون حياته العامة والخاصة ولا يدافع عنها ولا يغار عليها ويقبل بتهميشها في الاستعمالين الشفوي والكتابي. وهو موقف عزاه إلى الاستعمار الفرنسي الثقافي الذي استمر نافذا وقوي الحضور عند الشعوب المغاربية الفرانكوفونية على وجه الخصوص.

وإن كان الكثير من الجزائريين يَرَوْن، سنوات قليلة عقب الاستقلال، في الازدواجية اللغوية بين الفرنسية والعربية ضرورة مؤقتة حتّمتها الظروف الاستثنائية التي مرّت بها البلاد أثناء المرحلة الانتقالية، فإنّهم يعتبرونها اليوم ضرورةً لكن من نوع آخر. إنّها ضرورة تحتّمها، هذه المرّة، غاية الانفتاح على الغرب والرغبة في تحقيق التميّز الاجتماعي والرقيّ الاقتصادي. لكن يفترض بهذه الازدواجية أن تنمّ عن علاقة تكامل بين اللغتين دون أن يتحوّل هذا

"التكامل" تـنافسا غير متكافئ يُـزحزح اللغة الرسمية والوطنية في البلاد عن مكانتها "الطبيعية" و"المشروعة" إلى المقام الثاني، مُفْسحا بذلك المجال للُغة أجنبية تحظى بالامتياز الثقافي والاجتماعي بحجّة تحقيـقها التطور والتميز.

ومسألة التنافس بين العربية والفرنسية أبرزتها بوضوح تلك الأرقام التي قدّمتها الدراسة المشار إليها مسبقا في بداية المقال والتي أماطت اللثام عن البون البيّن بين الطابع الرسمي لكلّ من هاتين اللغتين وبين استعمالاتهما الحقيقية والفعلية على أرض الواقع. فحضور لغة الضاد في السوق اللغوية الجزائرية (21.9 بالمائة) أقلّ بكثير مما هو عليه في الخطاب الرسمي (52.10 بالمائة)، في حين تقترب منها كثيرا لغة موليير من حيث استعمالها الحقيقي (16.1 بالمائة)، مع أنها – رسميا – لا تحتل المكانة ذاتها التي تحظى بها العربية.

وفي إطار التعريف الجديد الذي اقترحته خولة طالب الإبراهيمي (12) للعلاقات اللغوية في الجزائر القائمة على علاقات الهيمنة والسلطان، تحدثت مطولا عن العلاقة غير المتكافئة بين العربية والفرنسية، التي تعتبرها الأهمّ من حيث عـنـفها الذي لا تزال آثاره قائمة إلى حدّ الساعة، مشيرة إلى أنها علاقة نشأت منذ الفترة الاستعمارية وعمّرت بعد الحصول على الاستقلال، وسمحت للفرنسية بأن تـفـتكّ مكانة متميّزة وتظلّ تسيطر من خلالها على دائرة التكنولوجيا والاقتصاد والتخصصات التعليمية ذات الصيت

العالي، إلى أن أضحت مرة أخرى إحدى الوسائل الناجعة للارتـقاء الاجتماعي، وبالتالي اللغة المهيـمِنة في هذه العلاقة رغـم أنها، من وجهة نظر رسمية، مجرّد "لغة أجنبية".

ومن مظاهر "الانفصام اللغوي" في الجزائر نجد أن جلّ النخب السياسية والثقافية ممن تلقت تكوينا مزدوج اللغة وإن كانت تعترف رسميا وظاهريا بالعربية لغة وطنية ورسمية، فإنها لا تزال متأثرة باللسان الفرنسي وثقافته نفسيا واجتماعيا، فتجدهم يلقون خطاباتهم الرسمية ويعقدون اجتماعاتهم ويحررون الوثائق القانونية... بلغة موليير، وهو ما نعده اعترافا بهذه اللغة وبمكانتها الحقيقية في المجتمع. وقد تفسر هذه الظاهرة التي أطلقنا عليها "الانفصام اللغوي" بشعور أصحابها بالدونية عند اضطرارهم إلى استعمال العربية، ذلك أن شعورهم النفسي الباطن قد شوهه اعتقادهم الباطل بأن العربية ليست لغة الحداثة والتقدم.

كما يتجلى "الانفصام اللغوي" في أحد أهم ركائز الدولة، ونقصد القانون الذي يحيا بالجزائر في سياق خاص وتلفه الكثير من المفارقات: من جهة، عدم الاعتراف الرسمي بوجود ازدواجية في لغة التشريع تحديدا بأنواعه الثلاثة (التشريع الأساسي بمعنى الدستور، والعادي أي القانون بحسبانه مجموعة القـواعد القانونية الصادرة عن السلطة التشريعية في الدولة، والفرعي الذي تضعه السلطة التنفيذية)، مع أنها واقع لا يمكن إنكاره والجريدة الرسمية خير

دليل على ذلك، فمن يطّلع على أرشيفها يتأكّد من مسألة ازدواجية لغة التشريع. فكلّ عدد من أعدادها يتضمّن نسختين بالعربية والفرنسية منذ سنة 1964 إلى يومنا هذا.

ومن جهة ثانية، هناك ادعاء رسمي بأن العربية كلغة وطنية ورسمية هي أصل تحرير القوانين عموما والتشريع خاصة في بلادنا، بينما تشير كل الدلائل إلى تحرير معظمها باللغة الفرنسية، فالقانون لا يزال تَصوّرُه باللغة الفرنسية وتحريره بلُغتين إحداهما الأصل (الفرنسية) والأخرى لغة الترجمة (العربية)، وهو ما يؤكده، على سبيل الاستدلال، لجوء رجال القانون إلى النسخة الفرنسية عند حاجتهم إلى تفسير هذه المادة القانونية أو تلك.

إن دراستنا لمفهوم "الانفصام اللغوي" في الجزائر تقترب كثيرا من دراسة محمود الذوادي لمفهوم "الإزدواجية اللغوية الأمارة" في تونس والتي يقصد بها "التآمر بالسوء ضد اللغة العربية /اللغة الوطنية" في وضعية تتمتع فيها الفرنسية بمكانة اجتماعية أعلى وبتعاطف نفسي اكبر عند معظم المثقفين والمتعلمين، ولذلك نجدهم يميلون الى استعمال اللسان الفرنسي أكثر من العربي (13). ففي هذه الازدواجية لا تحظى اللغة الوطنية والرسمية بالمكانة الأولى في استعمالات مزدوجي اللغة وليست لها الصدارة في عواطفهم وذهنهم وفكرهم (14). فسيطرة اللغة "الأجنبية" على الحياة العامة وفي مختلف المستويات الثقافية في الجزائر لا تحتاج إلى برهان، إذ يكفي أن نلقي نظرة على

المعاملات في الأسواق والمحلات والبنوك ومراكز البريد، فمن يجرأ الآن على ملأ صكه باللغة العربية الفصحى؟؟؟ !!!... يكفي أن نلقي نظرة على الاجتماعات الرسمية أو غير الرسمية التي يعقدها المسؤولون الجزائريون والخطابات التي يلقونها والوثائق التي يحررونها...أو على الأولياء الذين أضحوا الآن يحرصون كل الحرص على تلقين أبنائهم منذ نعومة أظفارهم لغة موليير حتى قبل اللهجات الدارجة أو الأمازيغية في بعض الأحيان ويدخلونهم روض أطفال ومدارس خاصة تميل فيها كفة التعليم للغة الأجنبية...أو على حديث عامة الناس بمختلف مستوياتهم الثقافية الذي أصبح مفرنسا أكثر من أي وقت مضى...

3. انعكاسات "الانفصام اللغوي" على "الأمن الهوياتي" الجزائري:

لا جرم أن التطرق إلى تداعيات ما أسميناه "الانفصام اللغوي" على "الأمن الهوياتي" بالجزائر يستدعي بالضرورة تسليط الضوء أولا على العلاقة الجدلية التفاعلية التي تربط الهوية باللغة. فاللغة – باعتبارها مادة اجتماعية – تتطور وتتراجع، تنهض وتتخلف، تحيا وتندثر وفقا للتعامل الإيجابي أو السلبي الذي تتلقاه من مجتمعها. فإذا استعملها أهلها استعمالا كاملا، انتعشت وتطورت، أما إذا همشوها تقلصت حركتها وازداد الشعور بغربتها بين أهلها. بعبارة أخرى، اللغة كائن اجتماعي يتوقف تقدمها أو تأخرها أساسا على مدى استعمالها.

ومن ثم، فإننا نؤيد هذا الطرح السوسيولوجي الذي يرفض فكرة وجود لغات متقدمة وأخرى متأخرة، وإنما لغات طورها أهلها بالاستعمال وأخرى أهملوها بالإقصاء أو التهميش. وهو ما ينسحب على اللغة العربية التي تأثرت إيجابا وسلبا بمحيطها ومستعمليها بين الماضي والحاضر. فخلال العصور الإسلامية، استطاعت أن تنتقل من كونها لغة ذات أصول بدوية، إلى لغة أممية استعان بها العرب وغير العرب من مسلمين وغيرهم في معاملاتهم، وكتاباتهم، فأضحت لغة العلوم كلها في أقطارها الجديدة ووسيلة للتعبير عن الأفكار في مختلف المجالات لعدة قرون، كل ذلك كان بفضل أبنائها. أما اليوم، فتراجعت بسبب انصراف أهلها عنها وإقصائها من القيام بدورها الكامل كلغة وطنية ورسمية.

إننا نرى أن لغة الضاد تعيش تهديدا حقيقيا يهدد بدوره الهوية العربية الإسلامية، كيف لا والعلاقة بين اللغات والهويات وثيقة جدا في المجتمعات البشرية. وفي هذا السياق، يؤكد محمود الذوادي أن ملكة اللغة هي ما يميز البشر عن غيرهم من المخلوقات، وعليه فاللغة هي المحدد الأول لهوية الإنسان مشيرا إلى أن الإقصاء والنظرة الدونية للغة يؤديان الى تشويش الانتساب للهوية وإرباكها (15). وذهب عبد الرحمن بودرع، في مقاله "ما علاقة اللغة بالهوية"، إلى أبعد من ذلك، عندما تحدث عن ثلاث نقاط مهمة تبرز المكانة الكبيرة للغة في المجتمعات (16):

أولا، ساوى بين اللغة والهوية في قوله "**اللغة هي الهوية ذاتها**".

ثانيا، عزا الصراعات البشرية إلى صراعات لغوية في الأساس: "**وما من صراع بشريّ إلاّ ويكْمن خلفه صراع لغوي خفي**".

ثالثا، ربط اللغة بالأمن الاجتماعي والسيادة الوطنية، إذ جاء على لسانه:

"**ليست اللغة أداة للتعبير فقط، ولا وسيلة للتواصل بين الأفراد فقط، ولا شأنا من شؤون العلم والثقافة والتدريس فقط، ولكنّها شأن من شؤون الهوية والأمن القوميّ والسيادة الوطنيّة والاستقرار الاجتماعيّ والنّفسيّ. فاللغة مُؤلِّف رئيس من مُؤلِّفات الهويّة في كلّ بَلَد أو وَطن أو أمّة. (...) فهي النّاطقُ الرّسميّ بلسان الهويةِ ووسيلَةُ إدراكِ العالَم وتصنيفِ المُجتَمَعاتِ. فالهوية نتاج المعاني والقيم التي يشيدها الأفراد عبرَ اللّغة، والطّابع الخاصّ بمجتمع من المجتمعات ناتج عن تفاعل ما يسري بداخله من خطابات لغوية مرتهنة بالمتغيرات التاريخية.**"

لقد تفطن الاستعمار الفرنسي منذ أن وطأت أقدامه التراب الجزائري إلى مكانة اللغة وأهميتها في استلاب هوية شعبه، ومثلما عمل على نشر قـوّاته للسيطرة على مختلف مناطق البلاد، فإنه حرص كذلك على محاربة العربية في عُقر دارها، من جهة، ونشر لغته، من جهة ثانية. وللتعبير عن هذا

الواقع، لم نجد أحسن من مقطع مقتطف من تقرير فرنسي حول التعليم في الجزائر خلال الحقبة الاستعمارية، ورد فيه ما يلي (17):

« Le français marche avec nos soldats et puis quand ils auront vaincu, on consolidera cette victoire, car la langue demeure l'instrument le plus sûr de la colonisation. »

يوضّح هذا المقطع أنّ فرنسا لا تؤمن بالهيمنة من خلال القوّة العسكرية وحدها، فهي مقتنعة كلّ الاقتناع بأنّ الحفاظ على وجودها المستمر يستلزم نشر لغتها. وهي حقيقة السياسة التي انتهجتها منذ السنوات الأولى لاحتلالها الجزائر، خاصة أنّها كانت ترى في العربية والإسلام مصدر مقاومة مشروع الإدماج، فحرصت على أن تهمّش تعليم لغة الضاد ثُم تُقصيه، إلى أن فرضت اللسان الفرنسي كليا ومنحته لقب اللغة الرسمية في الجزائر. وحتى بعد حصول الجزائر على الاستقلال وجعلها من العربية – على الأقل رسميا – رمز الهوية الوطنية ولغة وطنية اعترفت بها الدساتير، وإعلانها العمل على استرجاع مكانتها وتعميم استعمالها من خلال عملية التعريب، إلا أن ذلك لم يُؤثّر على قوة اللغة الفرنسية ولم يزعزع مكانتها في المجتمع الجزائري. بل على عكس ذلك، زادت نسبة تعلّمها وانتشارها، بسبب استمرار دعم فرنسا لها ولثقافتها بمختلف السبل.

وتحضرنا في هذا المقام كلمة للوزير الجزائري الأسبق، محي الدين عميمور (18)، شبّه فيها بتهكّم اللغة الفرنسية بسبيّة يظفر بها المقاتل

عندما يعـود بغـنائم الحرب، فإمّا أن يجعـلها خليلة إن كانت شابة وجميلة، أو أن يكلّفها بمهام الخادمة إن كانت غير ذلك. فقد جاء على لسانه: «**عـندنا** [في الجزائر] **نعـيش العجب العجاب، فالسـبيّة استولت على عقل مالكها وخلبت لـبّه، فسلّمها لحيته وأسلم لها قياده. ولأنّها لم تكن تؤمن بالتعددية وكانت ترفض المساواة، فقد طردت زوجه وأبناءه، وجاءت بأهلها فأسكنتهم المنزل وسلّمتهم مفاتيحه، وأرغمت بعْلها "الجايح" على أن يكتب كلّ أملاكه باسمها، وعطفت عليه في نهاية الأمر فخصّصت له غرفة مهجورة يلفظ فيها أنفاسه الأخيرة** (...)».

والحديث عن انعكاسات هذا "الانفصام اللغوي" على أمن هويتنا الجزائرية يقودنا أيضا إلى الحديث عما أسمته خولة طالب الابراهيمي semi-linguisme" (19) أي "كفاءة لغوية دنيا"، بعد أن أضحى السواد الأعظم من مرتـادي المدارس الجزائرية لا يُتقن لا العربية الفصحى التي تعدُّ اللغة الرسمية في البلاد ولا اللغة "الأجنبية" الأولى. فأدّت هذه الوضعية إلى حبسة مزدوجة عوض الحصول على كفاءة لغوية وثـقافية مزدوج، وهو ما يؤثر حتما على هوية هذه الأجيال التي تجد نفسها الآن في مفترق الطرق حائرة أي اتجاه تسلك.

فضعف مستوى الإلمام بالعربية في الجزائر وما أصابها من سلبيات التداخل اللغوي باستعمال خصائص الفرنسية أثناء التكلم أو الكتابة بها ونفور

أهلها من استخدامها كلها عوامل تهدد وجود الفصحى واستعمالها، مما قد يهدد الأمن اللغوي باعتباره جزءا من الأمن الهوياتي. وبالتالي، فتهديد اللغة العربية في مجتمعاتها يعني تهديد الهوية الثقافية العربية باعتبارها قاعدة صلبة تمنع حالات الاختراق الثقافي والغزو الفكري.

الخاتمة:

بناء على ما تقدم، يمكن استخلاص بعض النقط، لعل أهمها ما يلي:

- إن العلاقة بين العربية – لغة رسمية ووطنية – والفرنسية – لغة أجنبية "أولى" – في الجزائر هي علاقة تنافسية أكثر منها تكاملية أكدتها، إلى جانب عدة دراسات، الممارسة اللغوية للجزائريين في عديد الميادين. كما إنها علاقة خاصة وغير متكافئة تهمين فيها لغة موليير بعد أن افتكت لنفسها بعد الاستقلال مكانة متميّزة وسيطرت على دواليب الحكم ودائرة التكنولوجيا والاقتصاد والتخصصات التعليمية ذات الصيت العالي، وأضحت إحدى الوسائل الناجعة للارتقاء الاجتماعي.
- إن ما نقصده بـ"الانفصام اللغوي" في الجزائر ظاهرة اعتماد اللغة العربية في النصوص الأساسية والتغنّي بها وبضرورة استعمالها مع تمكين غيرها، أي اللغة الفرنسية، في التعامل

الرسمي والإداري والاقتصادي والتسييري. أما بالنسبة للحياة العامة، فلا اختلاف على أن هذه اللغة الأجنبية تحظى بمكانة اجتماعية أعلى وبتعاطف نفسي أكبر لدى معظم المثقفين والمتعلمين، في حين تراجع مستوى استعمال العربية والإلمام بها وبدأ أهلها ينفرون منها.

- إن لغة الضاد تعيش تهديدا حقيقيا يهدد بدوره الهوية العربية الإسلامية، أي الأمن الهوياتي، كيف لا واللغة هي المحدد الأول لهوية الإنسان وأي إقصاء لها يشوش الانتساب للهوية وإرباكها، وهو ما تعيشه حقا الأجيال القادمة.
- قد يكمن حل هذه المعضلة في ضرورة تطبيع العرب عموما والجزائريين تحديدا لعلاقتهم مع اللغة العربية من خلال الاستعمال الكامل لها، وأن تحتل هذه اللغة المرتبة الأولى في قلوب أفراد المجتمع وعقولهم قبل استعمالاتهم لها. لكن هل يتحقق هذا يوما في ظل زيادة النفور منها وقوة الارتباط بمنافستها الفرنسية؟

الهوامش:

(1) أنظر:

Ambroise Quéffélec, Yacine Derradji *et al.*, Le français en Algérie : Lexique et dynamique des langues, Éditions Duculot, 2002, Bruxelles.

(2) أنظر مثلا:

Safia Asselah Saada, Les langues et l'école ; Bilinguisme inégal dans l'école algérienne, Peter Lang, 1983, Berne. Khaoula Taleb Ibrahimi, Les Algériens et leur(s) langue(s). Eléments pour une approche sociolinguistique de la société algérienne, El Hikma, 1995, Alger.

(3) طه فرج عبد القادر وآخرون، **معجم علم النفس والتحليل النفسي**، الطبعة الأولى، دار النهضة العربية، بيروت، دون تاريخ، ص. 348.

(4) أنظر: http://www.cours-univ.fr/documents/cours020301.pdf (تم تصفح الموقع بتاريخ 12. 10. 2018)

(5) أنظر:

Prudent Lambert-Felix, « Diglossie et interlecte », **Langages**, 15e année, n°61, Bilinguisme et diglossie, sous la direction de Jean-Baptiste Marcellesi, 1981, pp. 13-38. URL : www.persee.fr/doc/lgge_0458-726x_1981_num_15_61_1866 (تم تصفح الموقع بتاريخ 15. 10. 2018)

(6) أنظر:

Emmanuelle Guérin, « L'« outre-langue » des enseignants ou le mythe d'une langue monovariétale », **Pratiques** [En ligne], 145-146 | 2010, mis en ligne le 15 juin 2010, URL : http://journals.openedition.org/pratiques/1501 (تم تصفح الموقع بتاريخ 15. 10. 2018)

(7) عامر مصباح، **معجم العلوم السياسية والعلاقات الدولية**، دار الكتاب الحديث، 2012، القاهرة،ص. 27.

(8) سيد أحمد قويجلي، **الدراسات الأمنية والهوية، مقاربة جديدة لإعادة تعريف الأمن**، المركز العلمي للدراسات السياسية، 2014، عمان، ص.80.

(9) أحمد بن نعمان، **الهوية الوطنية : الحقائق والمغالطات**، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، 1995، الجزائر، ص. 23.

(10) يوسف بوزار وموسى سيد علي، "الهوية الامازيغية بين المطالب الشرعية والتوظيف السياسوي للقضية"، في د.نسيسة فاطمة الزهراء، **الأمن الهوياتي في ظل التنوع الثقافي اللغوي في الوطن العربي**، ط.1، منشورات ألفا للوثائق،2019، الجزائر.

(11) أنظر مثلا:

Mohamed Benrabah, « Politique linguistique en Algérie indépendante : mise en œuvre, résultats et évolutions récentes », in M. BOZDÉMIR et L-J. CALVET (dir.) Politiques linguistiques en Méditerranée, Honoré Champion, 2010, Paris, p. 256.

(12) 1995 : 66-73.

(13) محمود الذوادي، **الازدواجية اللغوية الامارة**، تبر الزمان، 2013، تونس، ص.11.

(14) ومقابل ذلك، تحدث الذوادي عن الازدواجية اللغوية "اللوامة"، حيث يلوم الشخص المزدوج اللغة نفسه على استعماله للغة الأجنبية بدل لغته الوطنية في شؤون حياته الخاصة والعامة.

(15) محمود الذوادي، المرجع نفسه، ص. 60.

(16) عبد الرحمن بودرع، **ما علاقة اللغة بالهوية؟**، مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية : http://www.m-a-arabia.com/site/8553.html
(تم تصفح الموقع بتاريخ 25. 10. 2018)

(17) أنظر:

Nabila Jerad, « La politique linguistique dans la Tunisie postcoloniale, in J. Dakhlia (dir.) Trames de langues. Usages et métissage de l'histoire du Maghreb, Maisonneuve et Larose, 2004, Paris, p. 547.

(18) محي الدين عميمور، "راهن اللغة العربية في أوطانها"، في **العربية: الراهن والمأمول**، عدد خاص، المجلس الأعلى للغة العربية، 2009، الجزائر، ص. 53.

(19) 1995، ص. 61.

قائمة المراجع:

- بن نعمان أحمد، **الهوية الوطنية : الحقائق والمغالطات**، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، 1995، الجزائر.
- بودرع عبد الرحمن، **ما علاقة اللغة بالهوية؟**، مجمع اللغة العربية على الشبكة العالمية : http://www.m-a-arabia.com/site/8553.html
(تم تصفح الموقع بتاريخ 25. 10. 2018)
- بوزار يوسف وموسى سيد علي، الهوية الامازيغية بين المطالب الشرعية والتوظيف السياسوي للقضية"، في نسيسة فاطمة الزهراء، **الأمن الهوياتي في ظل التنوع الثقافي اللغوي في الوطن العربي**، ط.1، منشورات ألفا للوثائق، الجزائر، 2019.

- الذوادي محمود، **الازدواجية اللغوية الامارة**، تبر الزمان، 2013، تونس.
- عبد القادر طه فرج وآخرون، **معجم علم النفس والتحليل النفسي**، الطبعة الأولى، دار النهضة العربية، دون تاريخ، بيروت.
- عميمور محي الدين، راهن اللغة العربية في أوطانها، في **العربية: الراهن والمأمول**، عدد خاص، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2009.
- قويجلي سيد أحمد، **الدراسات الأمنية والهوية، مقاربة جديدة لإعادة تعريف الأمن**، المركز العلمي للدراسات السياسية، 2014، عمان.
- مصباح عامر، **معجم العلوم السياسية والعلاقات الدولية**، دار الكتاب الحديث، 2012، القاهرة.
- Safia Asselah Saada, Les langues et l'école ; Bilinguisme inégal dans l'école algérienne, Peter Lang, 1983, Berne.
- Mohamed Benrabah, « Politique linguistique en Algérie indépendante : mise en œuvre, résultats et évolutions récentes », in M. BOZDÉMIR et L-J. CALVET (dir.) Politiques linguistiques en Méditerranée, Honoré Champion, 2010, Paris.
- Emmanuelle Guérin, « L'« outre-langue » des enseignants ou le mythe d'une langue monovariétale », Pratiques [En ligne], 145-146 | 2010, mis en ligne le 15 juin 2010, URL : http://journals.openedition.org/pratiques/1501(2018 .10 .15)
- Nabila Jerad, « La politique linguistique dans la Tunisie postcoloniale, in J. Dakhlia (dir.) Trames de langues. Usages et métissage de l'histoire du Maghreb, Maisonneuve et Larose, 2004, Paris.
- Prudent Lambert-Felix, « Diglossie et interlecte », Langages, 15e année, n°61, Bilinguisme et diglossie, sous la direction de Jean-Baptiste Marcellesi, 1981, pp. 13-38. URL :

www.persee.fr/doc/lgge_0458-726x_1981_num_15_61_1866(2018 .10 .15)

- Ambroise Quéffélec, Yacine Derradji *et al.*, Le français en Algérie : Lexique et dynamique des langues, Éditions Duculot,2002, Bruxelles.
- Khaoula Taleb IbrahimiI, Les Algériens et leur(s) langue(s). Eléments pour une approche sociolinguistique de la société algérienne, El Hikma, 1995, Alger.